جمالية القصيدة الصُّوفية في الشّعر الجزائري المعاصر
قصيدة "في البال شمعات" للشَّاعر "حبيب بن مالك" أنموذجا *

Poem «Fi The aesthetic of the sufi poem in the contemporary Algerian poetry Al-Baal shamaat» for the poet "Habib ben Malik" as a model.

الباحث مناد عجو [1]، د. عائشة مسلم [2]

[1] جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس (الجزائر)
مخبر الدراسات الأدبية والنقدية واللسانية
menad.adjou@univ-sba.dz

[2] جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس (الجزائر)
meslemaicha18@gmail.com

ملخص : سنُحاولُ في هذه الورقة البحثية مقاربة أحد النُّصوص الشّعرية الجزائريّة المعاصرة المتميّزة بناءً ولغةً وتشكيلا، نقصد بذلك نص "في البال شمعات" للشَّاعر الجزائري "حبيب بن مالك"، ذلك أنَّ من أهمّ الخصائص التي تُشكّلُ فُرادته وتميُّزه تضمُّنه لنسيج لغوي صُوفي، ممّا أهَّله لينحُو نحوا خاصّا به في شعريته ويتَّخذ شكلا تعبيريا تمازجت ضمنَه جملةٌ من المواقف في الوجدانيات والرُّوحيات، أسهمت جميعُها في صياغة لغوية وفنيّة مثَّلت صُورةً إبداعية تُثيرُ السُّؤال وتُغري المتلقي بمقاربة أبياته والتَّوغّل في بنيته الطَّافحة بالشّعرية، والبنية التي نعنيها هي البنية الصُّوفية بوصفها بنية مهيمنة في القصيدة، وعليه سنُحاول الكشف عن جماليات القصيدة الصُّوفية في النَّص موضع البحث.

الكلمات المفتاحية : الشعر الجزائري؛ القصيدة الصوفية؛ حبيب بن مالك؛ الرمز الصوفي؛ المصطلح الصوفي.

Abstract : In this paper, we will try to approach one of the distinguished contemporary Algerian poetic texts in terms of structure, language and morphology, We mean by that the text "Fi Al-Baal shamaat" by the Algerian poet « Habib Ben Malek », as one of the most important characteristics that make up his uniqueness and distinctiveness include its inclusion in a mystical linguistic fabric, which qualified him to write his own grammar in his poetry and take an expressive form in which a number of emotional and spiritual stances were mixed. They all contributed to a linguistic and artistic formulation that represented a creative image that raises the question and tempts the recipient to approach its verses and penetrate into its poetic structure in the poem, so we will try to reveal the aesthetic of the mystical poem in the text of the search.

Keywords : Algerian poetry; Sufi poem; Habib Ben Malik; Sufi Symbol; Sufi term.

*

تاريخ استلام البحث: 2021/07/09	تاريخ قبول البحث: 2021/08/26	تاريخ النشر:2021/10/15

مقدمة:

لقد درج الشَّاعر الصُّوفي إلى نحت معان تصلُ بالمتلقي أحيانا إلى حدّ الدَّهشة التي تتجاوزُ المألوف والسَّائد وتخرج به من حيّز اللُّغة المعيارية العادية إلى لغة راقية تستمدُّ رُقيَّها من شعريتها، وقد تأتَّى له ذلك من خلال اشتقاق معاني غير مأهولة وتوظيف مُفردات تعكسُ رُؤيته وتجربته الشُّعورية، فحاول أن يخلق علاقات وإبدالات جديدة بين عناصر اللُّغة للتَّعبير عن رُؤاه التي ترقى به إلى مصاف الصُّوفية ومدارجها. إنَّ لغة الشَّاعر الصُّوفي لغة خاصة به، بعيدة عن اللُّغة التي تُوظَّفُ في سائر أنواع الخطاب الأخرى، ذلك أنَّه (توسّع في أشكال التّعبير التي سمحت بها اللغة، وشكّل نسقا خطابيا مختلف المكونات والظواهر النّصية، من شعر وقصص وأدعية ومناجيات وحكم وأخبار تنتظمها مجموعة من القوانين التي تحكم العلاقات والتفاعلات فيما بينها، قصد بلوغ هدف معين، هو التعبير عن تجربته في الاتصال بالله، وهي تجربة معرفية عاطفية، كما أنّها تجربة في الكتابة والإبداع)[1]. وقد استطاع الشَّاعر الجزائري أن يجد لذاته طريقا إلى هذه اللُّغة، فكان له حظٌ منها، فازدانت بها نُصوصه وارتقت بها إلى ما يجعلُ المتلقي في دهشة ماتعة، وغاصت به في أعماق شعرية صوفية ممزوجة بذوق يجعلُ آذانه تشنفُ لها، وتمر من خلالها إلى الرُّوح والذَّات، خاصة إذا تعلَّق الأمر بتوظيف الرَّمز الصُّوفي الذي (أصبح لا يُوحي بشيء يمكن الاجتهاد في تفسيره، لأنَّه يخضعُ للذَّوق والمجاهدة وهو أمرٌ لا يُعرفُ إلا بالتَّجربة والمعايشة)[2]. وهو ما يفسّرُ مصدر الغموض الذي يكتنف بعض النُّصوص الصُّوفية، فيستعصي فهمها لدى الكثيرين، بينما يتصيَّدُ معانيها من خَبر التَّصوف ولغته وعوالمه.

إنَّنا نعثُرُ في المدونة الشّعرية الجزائرية على شُعراء خاضوا غمار التَّجربة الصُّوفية، قديما وحديثا، نذكر منهم: الأمير عبد القادر، أبو مدين التلمساني، لخضر بن خلوف، ياسين بن عبيد، وعبد الله العشي، وعبد الحميد شكيل.. وأسماءَ أخرى كثيرة، ومن بين هؤلاء الشُّعراء المعاصرين يبرزُ اسم الشَّاعر "حبيب بن مالك"[3] بوصفه شاعراً يُحاولُ جاهدا سبر أغوار النَّفس الإنسانية في الكثير من قصائده الشّعرية وفي نصه "في البال شمعات" تحديدا. وقبل تحليل النَّص موضع البحث من حيث اعتماد صاحبه على التَّجربة الصُّوفية بوصفها مرجعية بنى على وفقها رُؤاه الخاصة، سنُلقي إطلالة مُوجزة وسريعة على ماهية التَّصوف، وطبيعة اللُّغة الموظَّفة في الشّعر الصُّوفي.

1-في معنى التّصوف:

يعدُّ البحثُ في ماهية المصطلحات من أصعب الأمور وأكثرها تعقيدا بالنّسبة إلى الباحث والدَّارس، والمتخصّص في أحيان كثيرة، فكيف إذا تعلَّق الأمر بمصطلح "التّصوف" والأكيد أنَّنا سنُصادف مئات التَّعاريف المقترحة للإلمام بماهيته ومحاولة تحديده، سَواء في الكتابات التُّراثية أو المعاصرة، ولا أدلَّ على صحَّة ذلك من الاختلاف الحاصل بين عدد كبير من الباحثين والدَّارسين في إيجاد تعريف دقيق للتَّصوف، فمنهُم من يردُّه إلى الصُّوف وهناك من قال أنَّه من الصُفَّة وآخر يربطُه بالصّفات وآخرون عرَّفُوه بأنَّه من الصَّفاء[4]، ويمكنُنا ببساطة مع هذه الأمثلة أن نُلاحظ حجم الاختلاف الشَّديد الحاصل حول اشتقاق المصطلح من النَّاحية اللُّغوية في المقام الأول، ناهيك عن تحديد ماهيته الاصطلاحية.

وللتَّصوف بالنّسبة لمشايخ التَّصوف معان روحية سامية كثيرة ومتعدّدة، فهو مثلا عند "محمد زكي إبراهيم الشَّاذلي" (التَّخلي عن كُل دَني، والتَّحلي بكُل سَني، سُلوكا إلى مراتب القُرب والوُصول، فهو إعادة بناء الإنسان، وربطه بمولاه في كُل فكر، وقول، وعمل، ونيَّة، وفي كُل موقع من مواقع الإنسانية في الحياة العامة.)[5]. إنَّه تعريفٌ يُركّزُ كثيرا على ضرُورة التَّوجُه إلى الله بكُل الجوارح وترك الدُّنيا وشهواتها والإقبال على الله عزَّ وجل، كما يُقدّمُ تلخيصا له في كلمة واحدة هي (التَّقوى في أرقى مستوياتها الحسّية والمعنوية)[6]. ويُعرّفُه "الشَّيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد السَّهروردي" بقوله (إنَّ الصُّوفي من يضعُ الأشياء في مواضعها ويُدبرُّ الأوقات والأحوال كُلَّها بالعلم، يُقيمُ الخلَق مقامهم، ويُقيم أمر الحق مقامه، ويسترُ ما ينبغي أن يُستر، ويُظهرُ ما ينبغي أن يظهر، ويأتي بالأمور من مواضعها بحضور عقل، وصحَّة توحيد، وكمال معرفة، ورعاية صدق وإخلاص)[7]. إنَّ هذا المفهوم يُركز على ربط مفهوم التَّصوف بتعاليم الإسلام خاصة ما تعلَّق بالعلاقة بين الإنسان وربّه.

أمَّا في الكتابات المعاصرة، فالتَّصوف (مُشتق من الصّفاء أو من لبس الصُّوف وهذا شيء لا يجيء بتغير الخرقة، وتصغير الوجوه، وجمع الأكتاف ولقلقة الألسن بحكايات الصالحين وتحريك الأصابع بالتَّسبيح والتَّهليل، وإنّما يجيءُ بالصّدق في طلب الحق من الله عز وجلَّ والزُّهد في الدُّنيا وإخراج الخلق من القُلوب وتجرُّده عمَّا سوى مولاه عز وجلَّ)[8]، وهو مفهوم لا يختلف عن تعريفات القدامى للتَّصوف.

لقد تمكّن التّصوف بمعانيه السّامية ولغته الرّاقية وأساليبه المختلفة أن يجد لنفسه مكانا في الأدب العربي الحديث والمعاصر، فصرنا نجد له حيّزا لا بأس فيه في الرواية والقصّة، والحيز الأكبر في الشعر العربي، فقد أضحى الأدبُ الصُّوفي (لونا من ألوان الأدب الرّفيع الجميل يحملُ في طياته أسمى معاني وخصائص السُّمو الرُّوحي، والشّعر الصُّوفي نوع جديدٌ قديمٌ من أنواع الأدب الفنّي الذي عرفته المجتمعات الإسلامية في العصور المختلفة)[9]. فالشّعر الصُّوفي موجود في الشّعر العربي القديم، ولكنّه تبلور في كتابات المعاصرين بوصفه اتّجاها فنيا له من الخصائص والسّمات ما يُميّزُه عن غيره.

2-الشعر الصوفي: الخصائص والمميزات:

لقد اختار المتصوفة الشّعر للتّعبير عن تجاربهم ورؤاهم لأنَّ (الشّعر أقربُ الأشكال التّعبيرية للنّفس الإنسانية، فهو يُعبّرُ عن لحظة شُعورية مُتميّزة، وهو الصُّورة التي تُبرزُ حقيقة الإنسان كإنسان وحقيقته كشاعر، لأنَّ الشّاعر لا ينطقُ بالشّعر إلا عندما يشعرُ بنفسه، وبما يحيطُ به من طبيعة وكون زاخرين بالجمال والجلال ومملوئين بالأحداث والمناسبات التي تُلحُ عليه وتدفعُه إلى نظم الشّعر والنطق به)[10]. ظاهريا لا يوجدُ اختلاف بيّن بين الشّعر وشعر التّصوف، فالأخير يخضعُ للقوانين الشّكلية ذاتها التي يلتزمُها الشّعر من وزن وقافية وإيقاع، ومن زاوية المعاني التي يتقصّدها الشّعر والتّصوف نلحظُ أنّهما (حقلان مُتقاربان في عالم معرفي واحد، هو عالم الرُّوح المتخفّي وراء الواقع، إنّهما يصدران عن رُوحية للعالم، فهما يتّفقان في الأسلوب أي في الصُّورة والإيقاع واللُّغة)[11]، على أنَّ شعر التّصوف يُركّزُ على عالم الرُّوح المتخفي، ويُحاول القبض عليه أو محاكاته والعبور إليه على أقل تقدير، وعبر (الرُّؤية الشّعرية والحلم الواعي، يرى مُتصوفة عصرنا الواقع الكائن والواقع الممكن، وهو بذلك يخترقُ حجاب الزّمن الآني إلى الزّمن المستقبل)[12].

لعلَّ أكثر سمة يمكنُ أن نُلفيها في شعر التّصوف هو امتزاجه بالتّصوف الإسلامي، فمنه يستمدُّ الكثير من مضامينه ومصطلحاته، ولا يُوظّفُ الرّمز فيه إلا استحضارا لموروث إسلامي مُثقل الدلالة وفي ذلك إيجاز للكثير من التّوصيف، لتتدرّج بعد ذلك في مضامين أخرى، ومع ذلك فقد (نجحت الرّمزية الصُّوفية في حديثها عن الحبّ الإلهي، إلى الغزل المألوف لدى العُشاق والدّافع إليه هو الرّغبة في استرعاء الأسماع واستمالة النُّفوس وكبح جماح النّفس، والانصراف عمّا في الحياة الدُّنيا من حسن فتّان، وزُخرف أخّاذ مُتّصل بظروف الحياة الإنسانية، وأن الرّغبة الغرامية الكامنة يمكنُ أن يحلّ محلها عواطف من نوع آخر، لأنَّ الحبّ الإلهي بمثابة استمرار للحب الإنساني ونهاية له)[13]، الأمرُ الذي يجعلُه مُغرقا في لحظات شعرية مُتعالية أشبه ما تكونُ حالات سُكر وانتشاء.

من أهم الأغراض والمضامين الشّعرية للشّعر الصوفي: التّقشف والزّهد في الدّنيا، الحبّ الإلهي، المقامات، المناجاة، المديح النّبوي، التّوسل والاستغاثة، مدح الشّيوخ... ولعلّ (من مميزات الشّعر الصّوفي القديم السّمو الرّوحي، المعاني النّفسية العميقة، والخضوع لإرادة الله القوية، والإكثار من الخيال، واستعمال الرّمزية والشّطحات الصّوفية، والجنوح نحو الإبهام والغموض، والتّأرجح بين الظّاهر والباطن، والتّأثّر بالشّريعة الإسلامية كما شأن التّصوف السّني، وتمثل المصادر الفلسفية والعقائد الأجنبية كما هو حال الشّعر الصّوفي الفلسفي)[14].

3-لغة الشّعر الصّوفية:

تختلفُ لغةُ التّصوف عن لغة الأجناس الأدبية الأخرى وعن لغة الشّعر تحديدا، فـ(لغة التّصوف في جماليتها المميزة لها، تخلقُ وحدة فنية، ومن ثمّ شُعورية فكرية ترتفعُ بالمشاعر، وهي تُعبّرُ عن تجربة عرفانية فريدة، تكشفُ الدّلالة بوعي مُرهف وحسٍ وثّاب، قائمة على قصدية مُنفتحة على تُصوُّر شديد الخصوصية، وكذلك لغة المتصوفة التي اخترعوها، فهي على رقّتها، وسُهولتها وتنوُعها ذات دلالة اشتقاقية خاصة)[15]، وكأنّنا أمام شاعر يستهدفُ معاني لا تتجلّى إلا لذائقته الشّعرية، وهو ما يستشعرُه المتلقي إذ بإمكانه أن يلمس تلك المعاني التي يستوعبُها رغم الغموض الذي قد تشي به، وهو غُموض شفّاف روحي في المقام الأول، يمكنه الوصول إليه بإعمال عقله وقلبه معا، واللّغة الصُّوفية (لا تعني شيئا مُحدّدا وإنّما تعني رُؤيته لذلك الشّيء أو موقفه منه، واللّغة الصُّوفية مثل اللّغة الشّعرية تخلقُ ولا تُسمّي أو تُسمّي ما لا يُسمّى، إنّها تتجاوزُ بُعدها التّعبيري إلى السُّلطة التّأسيسية، بحيث تأخذُ المسمّيات معناها من سياقات الكلمة ووضعها الهندسي في القصيدة، بل يُصبحُ للحرف معنى عند الصُّوفي يتعلّقُ به ويُمارسُ من خلاله سُلطته على الأرض، فاللّغة عند الصُّوفي أشياء أو خالقة أشياء)[16].

نعم، يوجد فرقٌ بين لغة التّصوف ولغة الشّعر الصُّوفية، وفي تراثنا العربي نعثر على الكثير من الشُّعراء المتصوفة، والذين خلّدوا تجاربهم الصُّوفية بقصائد فائقة الجمال، كرابعة العدوية وابن عربي والحلاج وابن الفارض... يلجأ المتصوفة إلى (التّعبير الشّعري استفادة بما يحملُه الشّعرُ من طاقة إيحائية وثوب فضفاض يتّسعُ بعض الشّيء لمعاني التّصوف العائلة، ومن هُنا اعتقدتُ أنّ التّصوف يُدركُ على نحو أفضل من خلال شعر المتصوفة، الذي هو أنسبُ طرائق التّعبير اللّغوي عند القوم)[17]. إنّ للغة الشّعر الصُّوفية مستويات عدّة، تظهرُ من خلال تركيزها على مجموعة من الخصائص والسّمات التي تُشكل فارقا في التّمييز بين لغة الشّعر الصُّوفية وغيرها، من أبرزها:

4-المصطلحات الصُّوفية ورمزيتها:

ويُقصد بها المفردات التي تُوظَّفُ كثيرا في شعر التَّصوف وبدلالات مُغايرة تسمو بالذَّات إلى ما تطمحُ إليه، نذكرُ منها: الوقت، المقام، والظل، والحال، القبض، البسط، الحزن، الهيبة والأنس، التواجد والوجد والوجود، الفناء والبقاء، المكاشفة، الغيبة والحضور، الشَّريعة والحقيقة.... فلا تكادُ تخلو قصيدة صُوفية من أحد هذه الألفاظ، فأضحت حقلا دلاليا أو حزمة مصطلحية خاصة بشعر التَّصوف والمتصوفة، والمتعارفُ عليه (أنَّ لكُل حقل معرفي علمي أو مجال معرفي، مُصطلحات وألفاظ خاصة يستخدُمها أهلها، وقد انفرد المتصوفة بألفاظ تخصُّهم وتواطئوا عليها وذلك لتقريب الفهم بها بينهم وستر معانيها عن من يُعارضُ توجُّههم وخوفا من أن تشيع أسرارهم في غير أهلها، فهم يعدون مذهبهم وألفاظهم معاني أودعها الله تعالى في قُلوب قوم واستخلُص لحقائقها أسرار قوم)[18].

والرَّمز هو (تعمُّدُ استخدام كلمة أو عبارة لتدلَّ على شيء آخر لا بالتَّشابُه بل بالإيحاء والإشارة)[19]. وهو عند الشَّاعر الصُّوفي عبارة عن كلمات يُوظفُها للتَّعبير عن المعاني التي يشعرُ بها غيره، ورُؤى تطمحُ إليها ذاته، كرمز المرأة، الأنثى، الخمر، الماء، الملاذ... والملاحظُ أنَّ (توظيف الرَّمز مبنيٌ أساسا على القصَّة بجمالها الخاص، التي تُوحي بالفكرة بتوظيف المجاز أو الاستعارة، أو الكناية، ويظهرُ ذلك جليا من خلال القصص الواردة في قصائد الشُّعراء القدامى)[20].

4-جمالية قصيدة "في البال شمعات" لـ"حبيب بن مالك":

يحاولُ "حبيب بن مالك" في قصيدة "في البال شمعات" مُناجاة الذَّات التي تتخبَّطُ بين لواعجها، باحثا عن نفسه وهويَّته التي دخلت عالما رُوحيّا فريدا، يُريدُ أن يجد لنفسه مكانا ترتاحُ فيه، فيركنُ إلى عالم الذَّوق مُخاطبا إيَّاها، مُجسدا لها في ذلك البحر اللُّجّي الذي قابله على صخرة كانت مقام صُوفي عالم اتَّخذها مقاما له عسى أن يشرب من فيضه وينهل من علمه، و(يفيءُ إليها كُلَّما داهمته الحياة بهمومها فجعلها صومعة يسعى إلى العُروج إلى عالم أعلى وأنقى)[21]. يبدو "حبيب بن مالك" مُتحكما في لغته مُجيدا لها، وهو أمرٌ طبيعي إذا راعينا ظروف نشأته، التي كانت نشأة صُوفية وفي أحضان أُسرة تشرَّبت بالصُّوفية بلغة شعرية غنيَّة بالمعاني الصُّوفية. وقد نظم الشَّاعر "حبيب بن مالك" قصيدته على بحر يناسب حالته الشعورية والوجدانية والرّوحية، وهو " الكامل التام".

يستهلُّ قصيدته قائلا[22]:

في البال تسهرُ هذه الشَّمعات أشعلتُها فاحتجَّت الدَّمعات

وما الشَّمعات التي يستحضرُها الشَّاعرُ إلا رمزٌ يسهم في انتقال (اللُّغة من العبارة إلى الإشارة)[23]. إنَّه تعبيرٌ عن حالة نفسية تشهدُ نوعا من الانشطار والذَّوبان من تيها واحتراقها بنار البحث عن الذَّات التي أشعلتها رُؤى وهواجس تشغلُه مثلما تُشعلُ الشَّمعة، فإذا كان من البديهي أن تُضيء الشَّمعات الحقيقية الظَّلام وتُحيله إلى نور وضياء، فإنَّ من غير الطَّبيعي أنَّ لا يركن تفكيرُ الشَّاعر إلى الرَّاحة والهدوء في الوقت الذي من المفروض فيه أن يفعل، فاللَّيلُ سُكون للجسد والعقل والذَّات. ثمَّ إذا كانت الشَّمعات لدى الشَّاعر عبارة عن صُورة حسيّة تحولت عنده إلى صورة ذهنية عبَّر بها عمَّا يختلجُ بداخله فإنَّ الدَّمعات أيضا صُورة ذهنية لمعانٍ تُؤرقُ الشَّاعر وتقضُّ مضجعه، وكأنَّنا أمام عقبات تمنع ذات الشَّاعر من السُّمو إلى العالم المتخفي.

إنَّ الشَّمعات التي يتقصَّدُها الشَّاعر من المستبعد أن تخمد في اللَّيل أو النَّهار، وهي من جعلته يقظا من سُباته الذي لطالما كان يتخبَّطُ في ظُلماته محاولا إنارته، ولكنَّه وجد خصاما وشجبا واحتجاجا من "الدَّمعة"، الدَّمعةُ هذا الماء المالح الذي يخطُّ آثاره كُلَّ ليلة على خدّه، فالدَّمعةُ تُشبه ماء البحر في مُلوحتها، وهو الذي يخاطبُه شاعرنا، وكأنَّها جزءٌ يسيلُ من هذا الكُل، الذي غالبا ما يكونُ ملجأ كُل مهموم ومغموم وكُل من يحاولُ أن يُداري كوامن نفسه فيُفجرُّها على شواطئه ليُبعثرها بين رمله وموجاته المتكسرة فيه. ينتقلُ الشَّاعر بنا في البيت الموالي إلى اللَّيل مُخاطبا إيَّاه:

يا ليل نمْ لا تنتبهْ لتأوّهي لست الذي تلهو به اللّسعات
لملْمْ دُجاك أنا هنا في خلوتي لا تخش إن عاثتْ بيَ العثرات

يُعدُ اللَّيل عادةً ذلك السّتار الذي يخبئ مواجع المظلومين والمكلومين وتُملأ سماؤه بدُعاء السَّاجدين المتهجدين، وفي المقابل تنتشرُ فيه الآهات واللَّوعات بظُلمته وسُكونه وصمته الموجع، الذي يفتحُ أبواب النَّفس على مصارعها فتتدفَّقُ من الجسد محاولة الوُصول إلى مكان تنشرُ فيه معارجها. يُخاطب الشَّاعرُ اللَّيل، فجعله جسدا لا يُرى بالعين، وإنَّما رُوحٌ جاءت لمواساته ومساعدته لينام ويرتاح الجسدُ المنهك ويصفو الذّهن المشتَّت، فإذا باللَّيل يفشلُ في ذلك، وانقلبت الموازين، فالشَّاعر

هو من يهدهد اللَّيل لا العكس، ويبدو واضحا أنَّنا أمام شاعر تجاوز مرحلة الإحساس بالآهات التي تنتجُ عن لسعات النَّفس وعثراتها وهذ ما يُؤكّدُ أنَّ الشَّاعر يُسيطرُ على حاسة الألم عنده.

يستحضرُ الشَّاعر مُصطلح الخلوة، وهي (ترك اختلاط النَّاس وإن كان بينهم، وقال عالم: الخلوة الخلو عن جميع الأذكار إلا عن ذكر الله تعالى، وقيل: الخلوة محافظة الحواس وترك الاستئناس بالنَّاس، وقيل: الخلوة المفارقة عن النَّظر والأقران قلبا وقالبا، وقال حكيم: الخلوة الأنس بالذّكر والاشتغال بالفكر)[24]. فالخلوة إذا هي ذلك الجو المهيب الذي تخرجُ فيه الرُّوح إلى مقامات وتعرجُ إلى مقامات خاصة، وهي عند المتصوفة أن يخلو الإنسان بنفسه داخل غرفة أو مكان خاص بالعبادة مع نفسه. وبالعودة إلى النَّص نجد أنَّ الشَّاعر يستمرُّ في حواره مع اللَّيل ويطلبُ منه أن يجمع سوداه وظلامه ويتركه وحيدا في خلوته، وكأنَّنا به في جو نوراني وهو في الظلام الدَّامس، وما يُفسد هذه الخلوة هو ظلام اللَّيل، والنور الذي يتلمَّسه الشَّاعر أشبه ما يكون بهالة تُحيط به.

يُضيفُ قائلا:

عوّدتُ قلبي أن يُعاقر صبره مهما انتشت من نيله الطّعنات

لقد عمد الشَّاعر بفضل تجربته الشّعرية إلى الربط بين الإنسان والكون باستثماره أهم جزئين فيهما؛ القلب/الشَّمس، فوظَّف اللُّغة (توظيفا رمزيا واستعملَ الصُّورة لكشف عوالمه وهي صُورٌ يتعالقُ فيها الرُّوحي والمادي للتَّعبير عن عالم غريب مُدهش ورُؤية مُتميّزة في لُغة تُجسّدُ المعنوي وتُجرّدُ الحسّي، تربطُ بين عناصر الإنسان وعناصر الكون، فلا حُدود بين الأشياء والمعاني واللُّغة)[25]. يستعين الشَّاعر برمز لطالما وُظف في الشّعر الصُّوفي وهو "الخمرة" من خلال إتيانه بالفعل "يُعاقرُ" والخمرة في المعجم الصُّوفي تُعبرُ عن الفناء في الذَّات الإلهية (فهي سُكر يُورّثُ في الإنسان الطَّرب والإذلال وإنشاء السرَّ الإلهي)[26].

والشَّاعر هنا يبدو متلذذا بفضيلة الصَّبر مداوما عليه بل قد يصل الأمر معه حدَّ الانتشاء، فلا حدود لصبره مهما اشتدَّت به الأزمات، وهو بذلك يسمو فوق النَّفس البشرية التي لها حدود إذا بلغتها فإنَّها لا تعرف للصَّبر طريقا ليصبح الجزع ديدنها. يضيفُ الشَّاعر في البيت الموالي قائلا:

دنـــيا تُمنّينا فنلبسُ ظلَّها يا شمسها لو دامت اللَّحظات

يُؤمنُ الشَّاعر بأنَّ الدنيا دار فناء وأنَّها سائرة للزَّوال لا محالة، لذلك نُلفيه زاهدا فيها غير متمسك، على الرَّغم من المغريات التي تدعو الإنسان للتَّمسُّك بها، ومهما حاول الإنسان ذلك، فإنَّه لن يُلامس إلا ظلَّها.

يُواصلُ الشَّاعرُ سرد تفاصيل رحلة ذاته، فيقول:

شيَّعتُ أيَّامي وخُضتُ تغرُّبي ... بحرا تُـادمه معي السّكرات
جـالسْتُني موجا يصـارع ليله ... ويـــتـــوق أن تـــرنو لـه
كـم حســـوة قاسمتها مرّ النّدا ... كم شهقة بحّت بها الكاسات
كم عثرة أدمتْ نوايا خطوتي ... وشواطئ الصّرعى لها غيبات
صرفا أداعبها فتنضج حرقتي ... وأغيب فيَّ فتبهت النّظرات
غبش يُساور سرحتي من يا أنا ... أنـا حرقة تلهو بها الجمرات
أحسو فتطفو بي مدارات لها ... في نـائيات كوامني صولات
يا بحر هل لي أن أبثّك قصّتي ... سكرى جثتْ تسقيكها

يدخلُ الشَّاعر "حبيب بن مالك" في عالم من "السُّكر النَّفسي" وهُو موضوع إبصاري كان الصُّوفيون يعيشونه في حالة التَّجلي، ويُقصد به (ما يتكشَّفُ للقلوب من أنوار الغُيوب)[27]. وممَّا يُلاحظ على الأبيات طغيان معجم الخمرة، نذكر: السكرات، حسوة، الكاسات، صرفا، أداعبها، أحسو، سكرى، تسقكيها. وجميع هذه الألفاظ تنمُّ عن (استخدم شُعراء الصُّوفية الخمرة رمزا للعرفان واستعاروا القاموس اللُّغوي لها كما فعلوا في رمز المرأة من شعراء العرب القدامى في الجاهلية، وذلك للدّلالة عن أمور غيبية، بتقريب الصُّورة للمتلقي من أجل فهمها وتذوقها)[28].

يختتمُ الشَّاعر نصَّه بقوله:

وجعي تضـاريس يعز عبورها ... حزني بأنفاس الرّدى يقتات
أحصي الأسى سنوات يُتمٍ بـاردٍ ... ليست سنينـا إنّهـا فلوات
وأغيب يـا دربـا تمـايل وعيه ... حتى جثت حيرى به الخطوات
في كفّ موج هارب من أسره ... خبّأت مـا فاضت به العبوات
يا من بنادي ! عتمةُ الليل ارتوتْ ... كيف الحضور وخمرتي حالات؟
كم حاول الموج اختطاف قصيدتي ... تصحو ولكن صحوها فلتـات

كن ما تكن يا موج وارجم صخرتي شبهي هنا وهناك تغفو الذات

تغلبُ سمة الحُزن على المقطع الشّعري، والحزنُ من أكثر المصطلحات التي تُوظَّف في الشّعر الصُّوفي، فهو (من أوصاف الصُّوفية في سُلوكهم وحياتهم، والمريد الحزين عند أئمَّة الصُّوفية يُيسَّرُ له الانتقال من مقام إلى مقام في أثناء رحلة مجاهداته ورياضاته أسرع من المريد الذي فقد حزنه، ويُقال: إن ما يقطعه الحزين في شهر، يقطعه غير الحزين في سنة، ولكنَّ بعض الصُّوفية يرون أنَّ الحزن يجب ألا يكون على الدنيا وما فيها، وإنَّما يُحمد عندهم حزن الآخرة، وبهذا يكون الحزن انقباض القلب من التَّشتت في الغفلات، ومطاوعة النفس في الرضا عن أفعالها وأعمالها)[29]. فالحزنُ الذي ألمَّ بالشَّاعر لا يشبه الحزن المتعارف عليه، حزنٌ فيه الكثير من اللَّذة وبه يتحرَّرُ الشَّاعر من قيوده، وإن كان الحزن في عُرف البشر يُمثل زمنا طارئاً سرعان ما يزول، فهو بالنّسبة لشاعرنا يمتدُّ لسنوات طِوال، ذلك أنَّ (الحزن أنينٌ من القلب يمنع النَّفس من طلب السُّرور والطَّرب، فهو إذن همٌ يجعلُ الصُّوفي دائم التَّفكير في حاله وعديم الرّضا عنها، وبذلك يُعدّ من طُرق تنقية النَّفس، وسبيلا لترقيتها إلى المقامات الرَّفيعة)[30]، ثم إنَّ هناك توظيفا لمصطلح صوفي آخر هو مصطلح "الحضور" حينما يقول: "كيف الحضور وخمرتي حالات" والحضور في الحقيقة هو (حُضور القلب بدلالة اليقين، حتَّى يصير الحكم الغيبي له مثل الحكم العيني)[31]. إنَّنا أمام شاعر يتساءل عن حضور القلب وسط الوجع والحزن الذي أضحى يسيطر عليه في جميع الحالات.

4. خاتمة:

من أهم النتائج التي يمكن أن نحصيها في هذه الورقة البحثية، والتي حاولنا فيها الوقوف على جمالية القصيدة الصُّوفية في الشعر الجزائري المعاصر من خلال قصيدة "في البال شمعات" للشَّاعر "حبيب بن مالك" هي:

- لقد استطاع الشّعر الجزائري أن يُقدم نماذج شعرية منفتحة على عديد من التَّجارب العربية في التَّصوف.

- وظّف الشَّاعر "حبيب بن مالك" بعض المصطلحات الصوفية في سياقات معيَّنة استطاع من خلالها أن ينقل معاناته وانشطار ذاته وفق مرجعية صوفية مميزة في التَّوظيف والتَّمكين والاستعمال.

- نقل الشَّاعر تجربته التي عاشها في قالب صوفي وعقل صوفي وقلب صوفي وبأدوات صوفية.

- وظّف الشّاعر بعض خصائص لغة الشّعر الصُّوفية، خاصة المصطلح والرَّمز الصُّوفيين، وهو ما يدلُّ على غنى مرجعيته الصُّوفية.

الهوامش:

[1] - آمنة بلّعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل، الجزائر، ط 3، 2009م، ص: 20.

[2] - عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1988م، ص: 356.

[3] - الشاعر حبيب بن مالك، من مواليد 1967 بأرزيو مدينة وهران. إطار سابق بقطاع البريد وتكنولوجيات الإعلام والاتصال. (نائب مدير- مفتش رئيسي- مفتش جهوي- مهندس تكوين) وأستاذ بمعهد الاتصالات السلكية واللاسلكية بوهران، خريج معهد العلوم الاقتصادية بوهران سنة 1988 تخصص تسيير، له في حقل الأدب: نصوص شعرية منشورة في عدة جرائد وطنية منذ 1991 منها الجمهورية الأسبوعية، المساء، القلاع، القبس الأسبوعي وغيرها، شارك في برامج إذاعية أدبية بإذاعة قسنطينة و وهران سنوات 1992 حتى 1999 كما شارك في عدة ملتقيات أدبية وطنية، عنابة، وهران، الجزائر، البليدة، معسكر، لديه أيضا ديوان "عتبات" تحت الطبع، يمينة رواية مخطوطة، الشبيهان رواية مخطوطة.

[4] - ينظر:أبو بكر محمد الكلابادي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أرثرجون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1994، ص: 5.

[5] - محمد زكي إبراهيم: أبجدية التصوف الإسلامي بعض ماله وما عليه، مؤسسة إحياء التراث الصوفي، القاهرة، ط 5، د. ت، ص: 13.

[6] - المرجع نفسه، ص: 13.

[7] - المرجع نفسه، ص: 16.

[8] - قيس كاظم الجنابي: التصوف الإسلامي في اتجاهاته الأدبية، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2006م، ص: 10.

[9] - عبد الجليل عبد الله صالح: لمحات من الشعر الصوفي بأم عيدان، دراسة وصفية تحليلية، سلسلة مطبوعات الطريقة السمانية، أم عيدان، الراوي للنشر والتوزيع، 2019م، ص: 08.

[10] - المرجع نفسه، ص: 33.

[11] - بولعشار مرسلي: الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، أطروحة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة وهران، الجزائر، 2014-2015م، ص: 11.

[12] - عبد القادر فيدوح: الرؤيا والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1994م، ص: 61.

[13] - عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري، ص: 348.

[14] - عبد الجليل عبد الله صالح: لمحات من الشعر الصوفي بأم عيدان، ص: 11.

[15] - المرجع نفسه، ص: 09.

[16] - علاق فاتح: في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2008، ص: 46.

[17] - يوسف زيدان: شعراء الصوفية المجهولون، دار الجيل، بيروت، 1996م، ص: 07.

[18] - ينظر: القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تح: معروف مصطفى رزيق، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2001م، ص: 22.

[19] - سلمى الخضراء الجيوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2001م، ص: 781.

[20] - بولعشار مرسلي: الخصائص الفنية للرمز الصُّوفي، مجلة علوم اللغة العربية وأدابها، العدد الخامس، 2013م، ص: 292.

[21] - علاق فاتح، في تحليل الخطاب الشعري، ص: 47.

[22] - القصيدة موثقة على صفحة الشاعر الشخصية على موقع الفيسبوك، الرابط:

https://www.facebook.com/habib.benmalek.75، نشرت بتاريخ: 11 يناير 2019، اطلع عليها يوم: 03 مارس 2021، على الساعة: 16:25.

[23] - علاق فاتح: في تحليل الخطاب الشعري، ص: 47.

[24] - محمود بن أحمد الفاريابي: تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق، هذبه وخرج أحاديثه: محمد خير رمضان يوسف، ج 01، دار ابن حزم، بيروت، 1421هـ، ص: 387.

[25] - علاق فاتح: في تحليل الخطاب الشعري ، ص: 58.

[26] - سعاد حكيم: المعجم الصوفي، دار دائرة، بيروت، لبنان، 1981م، ص: 1205.

[27] - الجرجاني علي بن محمد الشريف: التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان، 1985، ص: 37.

[28] - بولعشار مرسلي: الخصائص الفنية للرمز الصوفي، ص: 296.

[29] - حسن الشرقاوي: معجم الألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار النشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1987م، ص: 122.

[30] - المرجع نفسه، ص: 123.

[31] - عجم رفيق: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 1999م، ص: 291.

5. قائمة المراجع:

المؤلفات:

-أبو بكر محمد الكلابادي: التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق أرثرجون أربري، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 2، 1994.

-آمنة بلّعلى: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل، الجزائر، ط 3، 2009م.

-الجرجاني علي بن محمد الشريف، التعريفات، بيروت، مكتبة لبنان، 1985.

-حسن الشرقاوي: معجم الألفاظ الصوفية، مؤسسة مختار النشر والتوزيع، القاهرة، ط 1، 1987م.

-سعاد الحكيم: المعجم الصوفي، دار دائرة، بيروت، لبنان، 1981م.
-سلمى الخضراء الجيوسي: الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، تر: عبد الواحد لؤلؤة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2001م.
-عبد الجليل عبد الله صالح: لمحات من الشعر الصوفي بأم عيدان، دراسة وصفية تحليلية، سلسلة مطبوعات الطريقة السمانية أم عيدان، الراوي للنشر والتوزيع، 2019م.
-عبد القادر فيدوح: الرؤيا والتأويل، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1994م.
-عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 1988م.
-عجم رفيق: موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، لبنان، ط 1، 1999م.
-علاق فاتح: في تحليل الخطاب الشعري، دار التنوير للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 2008م.
-القشيري: الرسالة القشيرية في علم التصوف، تح: معروف مصطفى رزيق، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 2001م.
-قيس كاظم الجنابي: التصوف الإسلامي في اتجاهاته الأدبية، مكتبة الثقافة الدينية، ط 1، 2006م.
-محمد زكي إبراهيم: أبجدية التصوف الإسلامي بعض ماله وما عليه، مؤسسة إحياء التراث الصوفي، القاهرة، ط 5، د. ت.
-محمود بن أحمد الفاريابي: تهذيب خالصة الحقائق ونصاب غاية الدقائق، هذبه وخرج أحاديثه: محمد خير رمضان يوسف، ج 01، دار ابن حزم، بيروت، 1421هـ.
-يوسف زيدان: شعراء الصوفية المجهولون، دار الجيل، بيروت، 1996م.

الأطروحات:

بولعشار مرسلي: الشعر الصوفي في ضوء القراءات النقدية الحديثة، أطروحة دكتوراه، جامعة أحمد بن بلة، كلية الآداب والفنون، قسم اللغة والأدب العربي، جامعة وهران، الجزائر، 2014-2015م

المقالات:

بولعشار مرسلي: الخصائص الفنية للرمز الصُّوفي، مجلة علوم اللغة العربية وأدابها، العدد الخامس، 2013م.

مواقع الأنترنت:

القصيدة موثقة على صفحة الشاعر الشخصية على موقع الفيسبوك، الرابط:

https://www.facebook.com/habib.benmalek.75، نشرت بتاريخ 11 يناير 2019، اطلع عليها يوم: 03 مارس 2021، على الساعة: 16:25.